مجلة الساورة للدراسات الإنسانية والاجتماعية
ISSN: 2477-9881 EISSN: 2676-2153
المجلد 07 / العـدد: 02 (2021)، ص 88- 108

الصحـراء ومنطق العصبية القبلية -الجنوب الغربي الجزائري آنموذجا-

The desert and the logic of tribalism -Southwestern Algeria as a model-

أ.د فقيقي محمد الكبير[1*]، أ.د برشان محمد[2]
[1] جامعة طاهري محمد بشار (الجزائر)، mohamedelkebir.figuigui@univ-bechar.dz
[2] جامعة طاهري محمد بشار (الجزائر)، mohammed.berchane@univ-bechar.dz

تاريخ الاستلام: 2021/04/12 تاريخ القبول: 2021/09/29 تاريخ النشر: 2021/12/20

الملخص:

شكّلت القبيلة وإلى غاية المرحلة الأخيرة من الاحتلال البنية الاجتماعية التي قام عليها كيان المجتمع في معظم المناطق الصحراوية، حيث تنتعش العصبية التي ترتبط ارتباطا وثيقا بمجتمع القبيلة، لأنّ ظروف الحياة القاسية هناك تقتضي تماسكا مستمرا بين أفراده، والوقوف أمام التهديدات التي تستهدف كيان القبيلة.

وبالرّغم من المتغيرات السياسية والحدثية التي عرفتها المنطقة خلال الفترة المعاصرة إلاّ أنّ إيديولوجية القبيلة ما زالت تُشكل المرجعية الأساسية للمجتمع في الصحراء.

الكلمـات المفتـاحية:

القبلية، الصحراء، التحالفات القبلية، القبائل البدوية، المجتمع القبلي، الاستعمار.

Summary

To the very last stage of occupation, the tribe considered as the social structure of most areas in Where tribalism was closely related to the society and the tribe, and because of the Sahara. Difficult conditions. The members must stand in the face of any threats against the tribe.

In spite of the politicall change that faced the region during the contemporary period, the ideological tribe is still the basis reference and the modern of the community in the Sahara.

Key words: tribalism - the Sahara - tribal alliance - the Bedouin tribes - defence and expansion - kinship. tribal society- colonization

* المؤلف المرسل

مقدمة

لا يجادل أحد في القول بأنّ البيئة الطبيعية تؤثر تأثيرا مباشرا في مختلف مظاهر النشاط الاجتماعي المرتبط بها، فالبيئة الصحراوية لها أثرها الفعال على حياة الأفراد، والقبائل التي تتخذ من الصحراء موطنا لها، وتتدخل في تحديد ملامح المجتمع الذي ينشأ فيها من جهة، وفي توجيه سلوك أفراد ذلك المجتمع وأنماطه الاقتصادية من جهة أخرى.

وإذا أردنا تناول الصحراء في نسقها الاجتماعي فإنّ الميزة الأكثر وضوحا، وخصوصية هي بنية المجتمع القبلي، والذي تتجلى ملامحه بشكل واضح لدى قبائل البدو الرحل، حيث تبرز العصبية القبلية بروزا جليا، وقويا كقوّة للمواجهة والمدافعة.

وقد وقفنا في هذا المقال على أثر البيئة الصحراوية المعروفة بعزلتها وصعوبة اختراق جغرافيتها، وقلّة مواردها في بروز العصبية القبلية لدى القبائل البدوية التي قامت حياتها السياسية على المنافسة والتحالفات، خاصة في ظلّ غياب السلطة المركزية التي تُنّظم حياة أفراد تلك القبائل، كما وقفنا عند راهن ومستقبل العصبية في الصحراء.

أ/ القبيلة والعصيبة

القبيلة أو المجتمع القبلي وحدة سياسية مستقلة تتكون من أفراد ينحدرون من نفس العائلة، وعلى الرغم من قوة إيديولوجية القرابة. تستقبل القبيلة الأصلية أعدادا من الوافدين انضمت إلى العائلة عن طريق التحالف والولاء سواء كان فرديا أو جماعيا. ويتم إدماجهم داخل السلالات الأبوية الأصلية. فبالنسبة للتحالف الفردي فإنّ المجتمع الأصلي الذي يتبناه يمتصه بفضل ذريته بعد وفاته فيتناسى النسب الأوّل بطول الزمان، بمعنى أنّ الشخص المتبنى يذوب في المجتمع الأصلي بشرط الخضوع مقابل التأمين والتضامن، والتماثل الاجتماعي بشكل أرقى. وبالتالي يمكن القول أنّ القبيلة تعاقد مُبرم بين أفرادها للتكتل والدفاع المشترك، ورمز ذلك التعاقد كما يُشير العروي هو الاسم الذي لا يتنازل عنه أحد، ويستمر عبر الأجيال.(العروي، 1991: 119)

ويرمز الاسم القبلي (العمور، أولاد جرير، ذوي المنيع، حميان...) إلى شخص اعتباري عاش في الرعيل الأوّل هو بمثابة الجدّ الأوّل الذي عمل على استمرارية الاتحاد.

وأمّا العصبية فهي إطار تنظيمي طبيعي يشدُ أفراد القبيلة وتنتظم بداخله العلاقات في المجتمع القبلي، خاصة عندما يتعرض كيان القبيلة إلى تهديد خارجي.(الجابري، 1982: 247). والعصبية في الحماية، والمدافعة ظاهرة طبيعية تُوجدها الألفة التي تنشأ بين أفراد القبيلة بفعل الصحبة والمعاشرة، وتقاطع المصالح. وهي تقوم بنفس الدور الذي تؤديه الأسوار والحاميات العسكرية والأمنية في المدينة.

والعصبية في مفهومها الاجتماعي رابطة اجتماعية نفسية تربط أفراد جماعة ما قائمة على القرابة المادية والمعنوية ربطا مستمرا، تقوى عندما يكون هناك خطر يُهدد المصلحة المشتركة للقبيلة، وهذه الرابطة أوجدتها وحدتهم في المنشأ. وتعتبر العصبية أساسا مُنظّما للمجتمع في الطور الأوّل من تطوره من البداوة إلى التحضر. (باتيسييفا، 1989: 360) أي أنّها القاعدة السياسية للمجتمع البدوي شأنها شأن الدولة التي هي أساس للمجتمع المديني. يُمكن التمييز بين القبلية كولاء" Tribalisme"، وبين النزعة القبلية "Tribalisation"، فالقبلية هي تجسيد لا واعي للقبيلة سرعان ما يتحول إلى نزعة تهدف إلى إعلاء الانتماء القبلي، وتعني تغليب الولاء للمجموعة القبليّة وللهوية القبليّة. وهي متفاوتة الحضور لدى المجتمعات.(بوطالب، 2002: 110)

ب/ الجغرافية الصحراوية ومنطق العصيبة

بُنيت المنظومة الاجتماعية للسكان في معظم المناطق الصحراوية على ثلاث مؤسسات اجتماعية وهي: القبيلة والمُمثلة في شيخ القبيلة وأهل الحلّ والعقد" كبار الجماعة"، وينتشر هذا النظام خاصة عند القبائل الكبرى ذات الأصول الهلالية التي اجتاحت منطقة الجنوب الغربي الجزائري خلال العصور الوسطى والحديثة كذوي المنيع، أولاد جرير، العمور، حميان، الرقيبات...، إضافة إلى المرابطين كأولاد سيد الشيخ ومختلف فروع العائلات الشريفة المنتسبة لبيت النبوة، حيث تملك القبيلة رصيدا

إيديولوجيا (أنثروبولجيا) اندماجيا يقوم على النسب، أو رابطة الدم. وتبرز مؤسسة القصر لدى سكان القصور والواحات، والمُمثلة في الجماعة أو "تجماعت" بالأمازيغية بمثابة مجلس استشاري وتنفيذي للقبيلة. وأخيرا تأتي مؤسسة الزاوية وهي سلطة عقلانية مثالية" يمثلها شيخ الزاوية أو مقدم الطريقة الصوفية.(برشان، 2016: 114)

تتباين شدة ودرجة العصبية القبلية بين هذه المجتمعات القبلية تبعا لمجموعة من المعطيات. حيث تبرز ظاهرة العصبية وتشتد في المناطق الريفية البعيدة عن منال الدولة، والفقيرة من حيث الموارد الاقتصادية، والمعزولة جغرافيا.

هذه العوامل المباشرة والهامّة قد تعزز وحدة القبيلة وتزيد في تلاحمها ضدّ أيّ خطر يتهدد مصالحها. كما أنّ استمرارها في ظلّ غياب أيّ تنمية حقيقية بهذه المناطق سوف يؤدي إلى تكريس ذلك الوضع، ويعيد إنتاج العصبية القبلية في صور جديدة تماشيا وجدلية السلطة والقبيلة. وبالتالي فإنّنا نسعى من خلال هذه الدراسة إلى إبراز تأثير العوامل السابقة على تبلور العصبية القبلية واستمرار إنتاجها.

ج- الاستقلالية السياسية

المجتمع القبلي عبارة عن تجمّع من الأفراد تربطهم علاقة نسب أبوية، ويعيشون في منطقة جغرافية ذات حدود واضحة يمارسون داخلها سلطاتهم باستقلالية بعيدا عن أيّ وصاية خارجية تحت قيادة شيخ القبيلة، الذي يملك سلطة القرار في تسيير أمور القبيلة، وهو يستقي تأثيره هذا من ذلك الاحترام العام.

فالقبلية باعتبارها تحمل تصورات ومفاهيم إيديولوجية تجد نفسها في علاقة جدلية مع الواقع السياسي المحيط بها، إذ عادة ما يكون الضعف السياسي دافعا أساسيا وفاعلا في إذكاء الولاء للهويات ما تحت وطنية، بما في ذلك القبلية والإثنية".(بوطالب، 2009: 84) فقد كانت السلطة القبلية وفقا لبنائها التاريخي معوضا حقيقيا للسلطة الزمنية. بمعنى أنّ النزعة القبلية تضعف عندما تقوى السلطة الزمنية، وتقوى عندما تختفي أو تضعف السلطة الزمنية. وبالتالي فإنّ غياب السلطة المركزية في المناطق

الصحراوية أدى إلى تقوية النظام القبلي كسلطة محلية للدفاع والذود عن مصالح القبيلة، على امتداد العصور الوسطى، وإلى غاية فترة حكم الأتراك العثمانيين لمعظم بلاد المغرب الحديث، ظلّت المناطق الصحراوية بعيدة وعصّية عن أحكام الدولة. كما أنّ بعض الدول التي تأسست، وقامت بالصحراء كدولة المرابطين مثلا استطاعت أن تبسط نفوذها على كامل بلاد المغرب والأندلس، إلاّ أنّها فشلت في الوقت نفسه من أن تضع حدا لحركات التمرد التي كانت الصحراء معقلا لها عبر التاريخ. وهو ما جعل المنطقة الصحراوية تعيش فترة عصيبة في أتون من الصراعات والانقسامات الحادة التي دارت فصولها بين القبائل، حركتها دوافع مختلفة، وكانت العصبية من أهمها تأثيرا وحضورا.

والتجربة أثبتت أنّ المنطقة التي لا تنالها أحكام الدولة، وترتخي فيها قبضة السلطة عادة ما تكون مُهيّأة للفوضى، وتُهيّأ المناخ الملائم والخصب لإنعاش العصبية، وانتشار الدعوات الدينية التي ترفع لواء الإصلاح بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وفي هذا الشأن يقول ابن خلدون في إشارته إلى ظهور المهدي المنتظر "... ولبعد القاصية عن منال الدولة وخروجها عن نطاقها. فتقوم عندهم الأوهام في ظهوره هناك وتقوى بخروجه عن ربقة الدولة ومنال الأحكام والقهر... وقد يقصد ذلك الموضع كثير من ضعفاء العقول للتلبيس بدعوة يميه تمامها وسواسا وحمقا ". (ابن خلدون، 1965: 207)

وفي الإطار السياسي أيضا تقوم الحياة السياسية في المناطق الخالية من السلطة المركزية، والتي تكون فيها الموارد الأساسية محدودة على مبدئي المنافسة والتحالف بين القبائل، وهو ما اصطلح على تسميته الباحثين أمل فينوجرادوف– Amal Vinogradov، وجون ووتربوري– John Waterbury، بـ "مجموعات الأمن"– "Security Groups". وبحسب الباحثين فإنّ الحياة السياسية في المجتمعات الصحراوية تتطلب حذرا شديدا. وتتجلى مُهّمة مجموعات الأمن التي يزيد أو يتقلص حجمها في"توفير الأمن لأفراد القبيلة والذود عنهم مع التحلي بقدر من التعقل والتبصر". بمعنى تجنب المحاولات المتهورة التي قد تُؤدي إلى فناء القبيلة (روس، 2006: 307) وتدميرها.

بحكم الاستقلالية التي يتمتع بها المجتمع القبلي فإنّ المحافظة على هذه الاستقلالية تتطلب أن يكون أعضاءه في تعبئة شاملة، وحالة استنفار دائم لمجابهة أي خطر خارجي قد يُعرّض المصالح الحيوية للقبيلة للتهديد. وعادة ما تتسبب خلافات عرضية قابلة للحلّ باللجوء إلى الصلح كآلية لتجاوز أو تأجيل تلك النزاعات في مواجهات دموية ومدمرة بين الأطراف المتنازعة، كالصراع على الأراضي الزراعية الخصبة أو موارد المياه أو المراعي. وبالتالي يُعدّ العدوان على الآخر سلوكا دائما في المجتمع القبلي خاصة البدوي منه. وهو واقع فرضته الظروف المناخية، الاقتصادية، الاجتماعية، السياسية، والأمنية بالدرجة الأولى في إطار التفكير الأمني الذاتي، فالتوق الإنساني لتحقيق الهوية في إطار القبيلة أو العرقية أو غيرها ينبع من الحاجة للأمان الذاتي والذي يصفه **"بومان/ Bauman"** بأنّه أمان يغريه الغموض.

لذلك لا تقتصر وظيفة العصبية على الحماية فقط، بل يمتد تأثيرها إلى التوّسع خاصة عندما يزيد حجم القبيلة، ويزداد عدد أفرادها فتصبح في حاجة ماسّة إلى مراعي واسعة، فتضطر حينذاك إلى مطاردة القبائل التي تعترض سبيلها. وعليه فإنّ الحاجة الاقتصادية لها دور في تحريك العصبية على الدفاع عن نفسها أوّلا ثم التوسع ثانيا(صبحي، 1989: 128) ويصير شعارها قول الشاعر العربي زهير بن أبي سلمى:

وَمَنْ لَمْ يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلاحِهِ يُهْدَمِ ومَنْ لا يَظْلِمِ النَّاسَ يُظْلَمِ

فالقبيلة إذن هي الوحدة الاجتماعية التي يقوم عليها كيان المجتمع في المناطق الصحراوية، وهذه الوحدة تتضخم أو تتقلص عبر التاريخ وعبر تنقلاتها، كما أنّها قد تكبر أيضا بالتحالف والولاء حتى تغطي منطقة جغرافية بكاملها، فتصبح بذلك قوة عسكرية وسياسية يُحسب لها حسابها. و تجدر الإشارة إلى أنّ القبيلة تتمتع ضمن التجمع القبلي بشخصيتها المستقلة باعتبار أنّ كلّ قبيلة تُشكل وحدة سياسية مستقلة في علاقاتها وقراراتها، حيث أنّها تفاوض تحالفاتها وتحلّ نزاعاتها بسيادية نسبية. ومن ثمّ فإنّ شخصيتها الاعتبارية الخاصة هي التي تمنحها الحقوق وتتحمل تبعا لها المسئوليات

والواجبات. وهذه الاستقلالية لا تتأتى إلاّ إذا تمتعت القبيلة بمكانة واحترام من قبل بقية القبائل الأخرى، فهذا التحالف يعطي نوعا من الاستقرار والأمن والتوازن بين القبائل، وهو تحالف قد يكون مؤقتا ويزول بزوال أسباب وجوده، وقد يطول إذا ما استمرت الثقة بين أصحاب التحالف، وقد يتوارث.

وهنا نذكر على سبيل المثال لا الحصر ذلك الحلف الذي جمع بين قبائل أولاد جرير وقبائل ذوي المنيع في منطقة الجنوب الغربي الجزائري خلال القرن السابع عشر، والذي عُرف بحلف زقدو « Zegdou »، أو حلف الخمس السادس، وقد قدر عدد مقاتلي القبيلتين في هذا الحلف بحوالي 4000 مقاتل و1500 فارس. وكان حلفا سياسيا وعسكريا قوّيا بين الطرفين أكثر ما يكون حلفا اجتماعيا. وتشكل في الأصل على أساس الحاجة إلى الدفاع المتبادل ضد القبائل المجاورة (De La Matinier, 1897, 583) الأمر الذي مكّن القبيلتين من بسط نفوذهما الكامل على الأراضي الواقعة بين ضفتي وادي الساورة وقير.

د- مبدأ الرابطة الدموية الإحيائية

ارتبطت العصبية ارتباطا وثيقا بمجتمع القبيلة في البادية والصحراء، وهو نتاج طبيعي في السلم والحرب، وقد تعددت مصادر تلك العلاقات المتشابكة، فمنها ما هو طبيعي بفعل القرابة والدم، ومنها ما قام على الولاء والجوار ، وأكدته الأحلاف المبرمة بينهم. على أنّ العصبية تكون أقوى وأشرس كلّما كانت القرابة بين أفراد القبائل البدوية أكثر أصالة وأشدّ نقاوة. ومن ثمّ كانت في هؤلاء على سائر القبائل والبطون التي تختلط فيها الأنساب. وغنيّ عن البيان بأنّ قبائل الصحراء إضافة إلى التنقل، الترحال، وشظف العيش في الحياة فهي تتميز بشدّة الاحتفاظ بأنسابها وكثرة عصبياتها، وذلك لأنّ العصبية تستند على النسب البيولوجي، والنسب عند هؤلاء بعيد عن الاختلاط والفساد بسبب ما يميز حياتهم من القسوة والبعد عن الأقوام الأخرى. (ابن خلدون، 1965: 224-227)

ينتج عن الزواج المختلط أو المتبادل الذي يتم بين أفراد القبائل المختلفة تقارب وتقاطع في الأنساب، وخاصة إذا كانت هذه المصاهرة بين العائلات الكبيرة في قبيلتين

متباعدتين، والذي يكون أساسا ومنطلقا لعلاقات أخرى كالتبادل الاقتصادي والتحالف القبلي، لأنّ المصاهرات القائمة على الزواج وانضمام الأنثى إلى مجموعة جديدة تشكل التحالفات التي تشكل بدورها الفيدرالية القبلية من خلال زواجية داخلية Endogamie أين تُصبح العائلات الكبرى هي المُنظّمة لشبكة هذا التنظيم، الذي تدخل فيه القرابة والتحالفات، والزيجات الداخلية. وفي معظم الحالات تبقى القرابة بالرحم - النسب القريب- أو الزواج ببنت العمّ هي المهيمنة على العلاقات الاجتماعية في الصحراء.

إنّ هذا الانغلاق القبلي يجعل أفراد القبيلة مُقيّدون بتعاليمها، وأيّ انحراف عنها يترتب عنه الإقصاء والتهميش، وفي المقابل يحظى الفرد المستجيب والمحترم لتلك التعاليم بالاستفادة من روح التكافل القرابي داخل Endogamiques، ويُعدّ الزواج الجماعي الصورة الواضحة لذلك. فيُصبح الفرد أكثر ولاء وطاعة لسلطة القبيلة ورموزها. ومن ثمّ يُمكن القول بأنّ القبيلة في الصحراء لم تكن تشكل نمطا للتنظيم الاجتماعي فحسب، بل كانت تمثل مجموعة أو وحدة سياسية مستقلة بذاتها(Bonté, 1991, 16).

تبقى الرابطة الدموية الإحيائية أي القرابة بالرحم - النسب القريب- هي الأقوى في تحقيق التماسك الاجتماعي لدى سكان الصحراء، (J. Berque, 1953, 261-271) حيث يذوب الفرد في الجماعة، ويُصبح قاصرا في اتخاذ أيّ قرار في حياته وحياة الجماعة التي ينتمي إليها. وصار الزواج ببنت العم الطريقة المثلى لتعزيز الانسجام داخل السلالة الأصلية، والحفاظ على الهوية الثابتة للقبيلة ولأفرادها. ومن ثمّ تبقى "جمهورية أبناء العم" كما هو على تعبير "جرمين تيون- Germaine Tillion" هي المُحددة لطبيعة العلاقات الاجتماعية داخل المجتمع الصحراوي والمنتج في نفس الوقت للقبلية Tribalisme كمصدر للانتماء والهوية. بل موازنة القوى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

أضحى كل فرد في الصحراء يُعرف بانتمائه إلى هذه الجمهورية، أي أنّ مسألة القرابة بالعصب هي التي تحدد في النهاية وضعية الفرد بدل أن تحدده أسماء الأماكن كأن نقول مثلا: أنا منيعي نسبة إلى قبيلة ذوي المنيع، أنا جريري نسبة إلى قبيلة أولاد جرير

بمنطقة بشار، أنا عموري نسبة إلى قبيلة العمور بمنطقة العين الصفراء، أنا حمياني نسبة إلى قبيلة حميان بمنطقة المشرية، أنا رقيبي نسبة إلى قبيلة الرقيبات بمنطقة تندوف... بينما يُنسب الفرد في المناطق التلية المعتدلة أو الرطبة إلى منطقة أو مكان، بمعنى يكون للموقع الجغرافي دور في تعيين أصل الفرد وليس القبيلة. كأن نقول: هذا وهراني نسبة إلى مدينة وهران، تلمساني، عنابي، قسنطيني، بليدي، بجاوي...

لا يُمكن إغفال التأثير الايجابي للتنوع البشري، والاختلاط الذي عرفته المناطق الشمالية للجزائر عبر العصور التاريخية، خاصة خلال مرحلة الاحتلال الفرنسي، والذي بدت ملامحه واضحة في تطور أفكار شباب الجيل الأوّل للاستقلال، وتحوّل نمط الحياة الاجتماعية، حيث تشكلت تدريجيا مع مرور الوقت كمحصلة ونتاج لذلك طبقة جديدة في المجتمع أكثر تحررا في أفكارها ومواقفها. خاصة بعد أن فكّت ارتباطها من الوصاية التقليدية التي فرضها شيوخ القبائل والزوايا على السكان، هذا من جهة. ومن جهة أخرى تمكنت الإدارة الاستعمارية في هذه المناطق من القضاء على السلطة القبلية والروحية الموروثة. والتي كانت أساس بنية الهرم الاجتماعي للمجتمع الجزائري بصفة عامة من خلال مصادرة الأراضي وإلغاء الملكية الجماعية" المرسوم المشيخي 1863، قانون وارني 1873)....

إذا كان القضاء على التنظيم القبلي بشمال البلاد تدبيرا ضروريا خلال الفترة الكولونيالية، إلاّ أنّه لم يكن كذلك في أقاليم الجنوب، فالإدارة الاستعمارية في بعض مناطق الهضاب العليا والصحراء عملت بكلّ قوّة للمحافظة على تواجد القبيلة ككيان مع إذكاء الصراعات القبلية وتفاقمها بشكل يُسهّل عملية مراقبتها. لأنّ الاستعمار الفرنسي لم ير في النظام القبلي بأقاليم الجنوب عائقا يحد من سلطة الإدارة الاستعمارية بقدر ما كانت تمثله الزوايا وانتماءاتها الطرقية، وشبكاتها الاجتماعية والتي يمكنها أن تُنظم مقاومات فعالة ضد الاحتلال. (Ben Hounet, 2009, 75)

فالسلطة الاستعمارية كانت تدرك أنّ الطريقة الصوفية هي مصدر الخطر، وأنّ الرابطة القبلية إن ظلّت تُؤازرها القيّم الروحية فإنّها تقضي على الوجود الفرنسي، ولذا ظلّت الزوايا والطرق الدينية في الصحراء تُشكل هاجسا كبيرا للسلطة الكولونيالية، التي حاولت إزالتها أو على الأقل مراقبتها. كما تمّ ربط انتماء القبائل الرحل بالقصور. وبهذا التدبير يُمكن مراقبة قبائل المنطقة وإذكاء التناقضات بين القبائل الرحل ذات الأصول العربية وسكان القصور ذوي الأصول الأمازيغية.

وعادة ما تبرز القصور والواحات الصحراوية في الكتابات الاجتماعية الكولونيالية كقلع معزولة وحصون تحاصرها القبائل البدوية، سعى الاستعمار بكل الوسائل المتاحة إلى تعزيز هذه القطيعة المفترضة بين البدو وسكان القصور، أو بين الريف والمدينة.

هـ- قلّة الموارد الاقتصادية ونذرتها

إذا كانت العصبية ظاهرة بدوية بامتياز، فإنّ بن خلدون ميّز هنا بين صنفين من البدو: صنف مُكوّن من القائمين على الشاة والبقر "أهل الشاوية"، وهذا يصفه بن خلدون بـ"الظعن المقيمون". وصنف آخر يعتمد في معاشه على الرعي وهم البدو الرحل، وهؤلاء يصفهم بـ"الظعن الخلص"، وهم من كان معاشهم من الإبل وهم الأقوى عصبية، هذه الفئة تتميز حسب ابن خلدون بنمط عيش جد قاس، بما يطبعه من ضيق اقتصادي كبير. (العروي، 1992: 40-41)

ثمة تأثير طبيعي آخر ألا وهو نمط النشاط الاقتصادي الذي يعتمد بشكل كبير على رعي الإبل، وشظف العيش في الحياة، والذي يؤثر في التجمعات الصحراوية، إذ يقتضي ذلك أسلوبا خاصا من التنظيم الاجتماعي الذي يستند في شبكاته الاجتماعية، وعلاقاته الخارجية على القوّة العصبية القبلية، والتي تكون أظهر وأشدّ فاعلية وحضورا بين سكان الصحراء، وبخاصة من كان معاشهم قائما على الإبل ونتاجها ورعايتها، والإبل تدعوهم إلى التوحش في القفر لرعيها، والصحراء مكان الشظف، فصار لهم الألفة والعادة. (ابن خلدون، 1965: 172)

وبدو الصحراء يتسمون بالصحة والاستقامة في أجسامهم، كما يمتازون بالذكاء وسرعة البديهة، وهذا النمط من العيش يُعّودهم على الصبر وقوّة التحمل، وهم أقرب إلى الشجاعة من غيرهم، بسبب ظروف معيشتهم المبنية على التقشف، والتي تضطرهم إلى الاعتماد على أنفسهم لدفع الضرر، والعدوان عنهم في القفار الموحشة التي يرتحلون فيها على إبلهم بدون حماية من أحد. (الساعاتي، 1983: 31)

ساعدت البيئة الفقيرة التي تعيش فيها معظم القبائل في الصحراء، وطبيعة النشاط الاقتصادي الذي تمارسه على ترسيخ حالة من الصراع الدائم على الموارد النادرة والمحدودة، وهو ما يجعل أفراد القبيلة في حالة استنفار دائم من أيّ طامع في هذه الموارد الشحيحة. ومعظم النزاعات القبلية ناتجة بشكل أو بأخر عن صراع على الموارد المحدودة.

إنّ طبيعة الصحراء التي تجعل أحياء القبائل التي تقطنها مفتوحة على الطبيعة، تكون مُعرضة للتهديد والاعتداء بشكل دائم ومُستمر، وبالتّالي يتطلّب ذلك تكتّل وتعاضد أفراد القبيلة للذود والدفاع عنها. فخصوصية البيئة الصحراوية قد تفرض على بعض القبائل القيام بعدوان، وغزو على أراضي القبائل الأخرى، تأمينا لحياتها من الهلاك، وبدو الصحراء مثلما يقول بن خلدون: "... ليس لهم مكان يرتاعون منه، ولا بلد يجنحون إليه، فنسبة الأقطار والمواطن إليهم على السواء، فلهذا لا يقتصرون على ملكة قطرهم وما جاورهم من البلاد، ولا يقفون عند حدود أفقهم بل يطفرون إلى الأقاليم البعيدة، ويتغلبون على الأمم النائية. " (ابن خلدون، 1965: 468) هذا من جهة. ومن جهة أخرى فإنّ ندرة التساقط المطري وتذبذبه في الصحراء وضع معالم أساسية لمستوى الإنتاج، وفرض اقتصادا تميز بالندرة وعدم الاستقرار في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية على حدّ سواء. ومن ثمّ ظلّ تذبذب المناخ الانشغال الأكبر لسكان البدو والقصور في الصحراء، لذلك كان اللجوء إلى تنظيم غارات في سبيل تأمين العيش بالنسبة لبعض القبائل نوعا من الاختصاص الاقتصادي قبل دخول منطقة الصحراء في دائرة الاستعمار. فتماسك

القبائل كلّها قد ارتكز أيضا على عامل التهديد الدائم الذي تضغط به كل قبيلة على أخرى خاصة في المجالات الحيوية كالمياه والمراعي.

وبالتالي يمكن القول بأنّ العدوان الذي هو طبع في البشر عموما وأهل البدو بشكل خاص محرك للعصبية القبلية، فقوة العصبية مستمدة أساسا من ذلك الالتحام والالتفاف الذي يجمع بين أفراد القبيلة وهو نتاج طبيعي لوحدة النسب والحسب. وهو تجسيد لقول الشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم:

ومَا أَنَا إِلَّا مِنْ غُزَّيَة فَإِنْ غَوَتْ غُزَّيَة غَوَيْتُ وإِنْ تَرْشُدْ أَرْشُد

وعلى سبيل المثال تُشير بعض الوثائق الفرنسية وهي تصف الوضع الانقسامي الذي عرفته منطقة بشار بالجنوب الغربي الجزائري قبل احتلالها، إلى سلسة من الاعتداءات المتبادلة بين القبائل وعلى رأسها قبائل ذوي المنيع والغنانمة من جهة، وقبائل ذوي المنيع وبني قيل من جهة أخرى، فخلال سنة 1841 تعرضت قافلة تابعة لذوي منيع للنهب والسرقة من قبل الغنانمة جنوب مدينة بني عباس فلجأ قائد القافلة إلى شيخ القبيلة بمنطقة قير طالبا منه المساعدة للثأر والانتقام من المعتدين، فلم يتردد الشيخ في الاستجابة إلى نداء الواجب القبلي.

تبعا لذلك تشكل جيش كبير من أفراد القبيلة واتجه إلى الساورة للدفاع عن هيبتها وردع المعتدين من الغنانمة، الذين طلبوا الحماية من أعيان قصر بني عباس قبل وصول ذوي المنيع. ولما بلغ ذلك الجيش قصر بني عباس وحاصروه من كل الجهات طلب قائده سكان القصر تسليمه المطلوبين من الغنانمة، وعندما رفضوا طلبه أمر أتباعه بإتلاف واحة النخيل التابعة للقصر.(C.N.R.S.A. 1945 : 465-467) كما وقعت مواجهات عدة بين القبيلتين على طول الفترة الممتدة من القرن السابع عشر إلى نهاية القرن التاسع عشر. منها ما حدث في سنة 1885 عندما حصل اعتداء مسلح من قبائل الغنانمة على قصر من قصور بني قومي كان في حماية فرع من قبيلة ذوي المنيع.

و- المجال الجغرافي الواضح المعالم

إنّ أهم ما يبرر الالتحام والالتفاف بين أفراد القبيلة هو وجود أرض جماعية يتوجب حمايتها والدفاع عنها من الخطر الخارجي، هذا الأخير هو الذي يساهم في زيادة وتقوية الالتحام الداخلي بين أعضاء القبيلة. ومن ثمّ فإنّ تحديد المجال الجغرافي لكلّ قبيلة يخضع في أغلب الأحيان لمبدأ القوة والغلبة والتحالفات، ويعتبر في الوقت ذاته عاملا حاسما في تحديد العلاقات بين القبائل المتجاورة. وتجنّبا للصراعات والصدامات الناجمة عن مشكلة الحدود القبلية فإنّ شيوخ القبائل عادة ما يلجئون إلى تحديدها وترسيمها نظريا بمجموعة رموز وإشارات أو عناصر طبيعية كالأودية والجبال. ويؤكد بن خلدون على دور المكان الذي يشكل محور التحام الجماعة، ويعزز تلاحمها الداخلي ضد الخطر الخارجي الذي قد يهدد استمرار وجودها سواء كان ناجما عن عصبية زاحفة من خارجها، أو عن تدخل سلطة مركزية. (بوطالب، 2002: 56)

فجلّ القبائل في الجنوب الغربي الجزائري تملك مجالا جغرافيا معلوما بحدود جغرافية وهمية غير ثابتة تبعا لقوة وهيبة كلّ قبيلة أمام القبائل الأخرى. وبخصوص استقرار قبائل ذوي المنيع بوادي قير بمنطقة بشار خلال القرن السابع عشرة الميلادي يذكر الجنرال دوكلومب . "De colomb" في كتابه «حول واحات الصحراء» بأنّ:"...الموطن الأصلي لقبائل ذوي المنيع هو الجنوب الغربي لإقليم السوس على ساحل المحيط الأطلسي، ولمّا أصاب المنطقة الجفاف وقلّ الضرع والزرع، ابتعد جزء من قطيعهم عن القبيلة بحثا عن مراعي خصبة، مُتقدما إلى الأمام تسوقه غريزة البقاء عند الجمال، وكذلك النسمة المنعشة القادمة من الشرق الجالبة معها رائحة العشب والأزهار. فبدل العودة إلى القبيلة عند الغروب بقي القطيع راتعا في مرعاه الجديد مما جعل بعض الرعاة من القبيلة يقتفون أثر القطيع، فلّما وجدوه في منطقة قير يرعى ويمرح بعثوا رسولا إلى القبيلة بأمر هذا المرعى الخصب".(Céard, 1933, 69)

إنّ اكتشاف هذا المجال الحيوي حسب الرواية السابقة جعل كلّ عشائر قبيلة ذوي المنيع، وهم على التوالي أولاد يوسف، أدراسة أولاد جلول، أولاد بوعنان، أولاد بلقيز تنتقل إلى عين المكان وتستقر به، بعد أن طردت وأبعدت قبيلتا "أحميان" و"أولاد جرير" الذين كانوا قد عمروا المكان من قبل، ولمّا كان ذوي المنيع أكثر عددا وقُوّة فإنّهم قد زرعوا الرعب في القبائل الأخرى. (De La Matinier , 1897, 585) ومن ثمّ يُمكن القول أنّ القبائل في المجال الصحراوي خاصة البدوية منها لا تميل إلى التنقل غير المفيد وغير المجدي، وتنقلهم منظم ومرتبط بظروف حياتهم.

فإذا كان وادي قير وسهل العبادلة قد مثلا مركزا حيويًا لتجمع قبائل ذوي المنيع بحكم أهميّتهما الاقتصادية الكبرى في نشاطها الاقتصادي، فإنّ وادي زوزفانة عدّ هو الآخر محورا أساسيًا لأراضي أولاد جرير التي كانت تزرع الحبوب خاصة القمح والشعير على مساحة معينة تُحادي الوادي، وهي ذات حيوية عالية تتغدى تربتها ممّا يُفرغه وادي زوزفانة من مواد معدنية مختلفة، تزيد من خصوبتها أثناء فيضانه. وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ هذا الوادي هو الوحيد الدائم الجريان في المنطقة، وإن كان ذلك مقتصرا على المجرى الممتد من المصب إلى جنوب تاغيت. (Gautier E.f , 1908: 158)

وعلى امتداد السفوح الجنوبية للأطلس الصحراوي ما يعرف بالهضاب العليا الغربية للجزائر التي تتميز ببيئتها الرعوية استوطنت قبائل العمور في منطقة العين الصفراء، وقبائل حميان في منطقة المشرية، وباتجاه الجهة الشرقية للأطلس الصحراوي توزعت قبائل عربية أخرى منها أولاد سيد الشيخ، وقبائل الترافي (مهديد،2006: 34)

تجدر الإشارة إلى أنّ أراضي العرش أو القبيلة كانت أداة لتجسيد الترابط الاجتماعي، وتثبيت الفرد بأرضه وإبقائه ضمن الجماعة، وامتلاك العرش والقبيلة للأرض يتعدى القيمة الاقتصادية، فهو من مظاهر المكانة الاجتماعية والسياسية داخل المجتمع الصحراوي، فهذه الملكية هي دليل على سلطة القبيلة ووجه من أوجه سيادتها. كما أنّ

أغلب تلك القبائل تجمعت في مجالاتها الجغرافية في شكل اتحاد قبلي موسع أو ما أصطلح عليه بالنظام الكونفيدرالي.

ولا زالت تحتفظ بتلك المجالات إلى اليوم بل وكثيرا ما تطرح أراضي العرش سواء الرعوية منها أو تلك التي تصلح للبناء وفي ظلّ غياب الوثائق والعقود الرسمية نزاعات قضائية بين القبيلة والدولة، أو بين القبائل فيما بينها.

وثمة مسألة أخرى تجدر الإشارة إليها في هذا المجال، وتتمثل في أنّ معاناة أفراد المجتمع المديني من سلطة أحكام الدولة الجائرة تفسدهم وتضعف فيهم البأس، وتغرس فيهم المذلة والانقياد، الذين يكسران شوكة العصبية ويضعفان من شدّتها، وهو ما عبر عنه بن خلدون في قوله:"...فإنّ انقيادهم ومذّلتهم دليل على فقدانها، أمّا سكان الصحراء فهم بمعزل عن هذه المنزلة، وأقرب إلى الشجاعة لبعدهم من أحكام السلطان". (ابن خلدون، 1965: 126- 127)

فالانقياد والخضوع لأحكام السلطان إذن دليل على فقدان العصبية، ومُؤشر عن عجز في المدافعة والذي عجز عن المُدافعة فأولى أن يكون عاجزا عن المُطالبة، لأنّ الغَلبة إنّما تكون بالإقدام والبسالة التي هي سمة لحياة البداوة. كما أنّه انطلاقا من المدينة تحدث عملية الانحلال التدريجي للأشكال الجماعية باعتبار أنّ الملكية الجماعية تعزز القبيلة، وتكون حاجزا يصعب تجاوزه.

ز- مستقبل العصبية القبلية

بالنظر إلى التحوّلات العميقة التي عرفتها المناطق الصحراوية خلال الفترة المعاصرة على جميع الأصعدة، خاصة في المجال السياسي حيث تمكنّت الدولة المركزية من بسط سلطتها، وتوطيد هياكلها وأجهزتها التي تتكفل بتوفير الحماية لتلك السلطة في هذه المناطق النائية، وغنيّ عن البيان بأنّ الخضوع والانقياد لسلطة الدولة يكسران ثورة العصبية وشدتها هذا من جهة. ومن جهة ثانية فإنّ التغيرات التي طرأت على المجتمع في الصحراء ، والتي تجسّدت معالمها في الاستقرار التدريجي لسكان البدو الرحل بالمناطق

الحضرية، وما صاحب ذلك من تنفيذ بعض المشاريع التنموية الباعثة على الاستقرار والاحتكاك بين المجتمعات، والثقافات، وبالتّالي تمثل حدود تحوّل أساسي في البناء الاجتماعي القبلي، وفي الثقافة البدوية الصحراوية. ناهيك عن ظهور عصبيات جديدة لا ترتبط بالقبيلة بل ترتبط بانتماءات وولاءات جديدة أهمّها الحزب والجماعة الدينية.

قد يُوحي ذلك كلّه بزوال العصبية وتفتيت البنية الاجتماعية للقبيلة، إلاّ أنّ الواقع يكشف عن مدى تجدّر هذه الظاهرة واستمرار ارتباطها بالتنظيم القبلي، خاصّة في صورتها الثقافية والوظيفية، حيث ما تزال القبائل الكبرى في الصحراء تحتفظ بقوّة عصبيّتها، وتتمسك ببنائها التقليدي، وبالمبادئ والقيّم التي يرتكز عليها التنظيم القبلي وتُسيّر أنماطه. بمعنى أنّ الوحدة الاجتماعية للقبيلة ما تزال قوية وفاعلة رغم المتغيّرات السياسية، الاقتصادية والحدثية.

صحيح أنّ القبيلة تحوّلت في الوقت الراهن من إطارها البنيوي إلى إطار ثقافي بفعل ظهور انتماءات جديدة لا علاقة لها بالرابطة الدموية، ولا بمنطق السلالة تحت تأثير التّحولات والتّغيرات المعاصرة، لكنّها ظلّت تمتلك وسائل القدرة على الحضور والاستمرار كلّما خضعت إلى الضغط والمساومة. "فإذا كانت القبليّة قد استخدمت كإستراتيجية أيديولوجية لمواجهة الآخر الخارجي، فإنّها اليوم تنهض لتتبلور داخل حقل الصراع والتنافس من أجل السلطة أو التقرّب منها". (بوطالب، 2002: 163) حيث نجد القبيلة تحضر بكلّ ثقلها في تغليب السلطات ووضع التحالفات السياسية، كما أنّ اختيار الأشخاص غالبا ما تلعب العصبية الدور الأكبر في ترسيمه. فقيم العشيرة والقبيلة لا تزال حاضرة في وجدان الفرد وممارساته، ولا تزال رافدا شبه أساس في معاملاته، بل وكثيرا ما تتحول الأيديولوجية القبلية إلى طرف منازع للأيديولوجية الوطنية والقومية.

نجد القبيلة تحضر بكل ثقلها في تغليب الأحزاب والتيارات السياسية ووضع التحالفات، كما أنّ اختيار الأشخاص أو ممثلي الأحزاب غالبا ما تلعب العصبية الدور الأكبر في وجوده. ومن ثمّ يمكن القول بأنّ ظاهرة العصبية القبلية لا تزال تحمل آثارها

البعيدة المدى في المجتمعات الصحراوية، وقد تغذّيها بعض الأطراف السياسية، وتُوقظها، خاصة في حالات تعبئة الجماهير، كما يحصل عادة في المواعيد الانتخابية.

تتبلور العصبية القبلية وتُسجّل حُضورها بشكل جليّ داخل التنافس من أجل السلطة. فكثيرا من التيارات السياسية، أو حتى مؤسسات المجتمع المدني التي وجدت من أجل تحقيق الترابط والتنسيق بين الدولة وأفراد القبيلة من أجل تحويل ولاءاتهم ونقلهم من الحياة الطبيعية إلى الحياة المدنية، نجدها تنحرف عن هذه المهمة، فتنساق تارة إلى الفكر القبلي الذي تغذيه الروح القبلية، ومن ثمّ تصبح القبيلة أهمّ مرجعية في تعبئة نشاط تلك التيارات والجمعيات.

في حين كان يُفترض أن تكون مؤسسات المجتمع المدني محايدة غير متحزبة وغير حكومية تمارس نشاطها خارج القرار السياسي الرسمي، وبعيدا عن تأثيرات القبيلة، وتعمل على صنع ولاء الدولة من خارج أجهزة الدولة، وتشارك هذه الأخيرة في تقدير المصلحة العليا للبلاد. تحوّلت هذه المؤسسات إلى منابر لإذكاء الروح القبلية والعروشية، ووسائل هدم لمشروع الدولة الوطنية. فالمنطق القبلي أو العشائري أضحى المعيار الرئيس في تحديد شبكة العلاقات بين القبائل في الصحراء وغيرها من المناطق، بل كثيرا ما يتجاوز سلطة الدولة. ويعود ذلك إلى عملية إعادة بناء إنتاجها من لدن نخب القبيلة التي اعتلت مناصب سيادية في هرم السلطة، أو مراكز مرموقة في السلم الإداري للدولة، ومن ثمّ تظل المحاباة كمقياس للانتقاء والاختيار، والموالاة كمؤشر للتعبئة والتزكية.

وهو ما يهدد التنمية والاستقرار ويرهن مستقبل الدولة الحديثة، وفي هذا الصدد يستقي بوزياني الدراجي تجربة مهمة من التاريخ السياسي للمغرب العربي في العصر الوسيط عندما يُشير إلى الأخطار التي شكلتها القبلية على التنمية والاستقرار السياسي في دول المغرب حيث يقول:"...تبيّن لي عندما تأملت الأحداث التاريخية، التي عرفتها بلاد المغرب الإسلامي، أنّ ظاهرة العصبية القبلية في هذه الربوع وقفت في طريق أيّ مسيرة تنظيمية أرادتها أو قرّرتها الدول التي نشأت في هذه الديار، بحيث كانت العصبية دوما

بمثابة حجر عثرة، بل غدت معول هدم وتدمير لكلّ خطوة حضارية تخطوها أيّ دولة من تلك الدول. كما صدمني أيضا ذلك التفكك الاجتماعي، والانحلال السياسي السائدان في المجتمعات المغربية بكاملها، بسبب القبلية المهيمنة على هذه البلاد." (الدراجي، 2003: 1)

وأمّا العصبية بالدين فهي بمثابة البركان الهادئ القابل للانفجار في أيّة لحظة، والتي قد تتخذ بعدا طائفيا، خاصّة وأنّ الوازع الديني بدأ يتهلهل، ويضعف تأثيره بسبب تنامي النزعة العصبية التي باتت تسود معظم المجتمعات. والمجتمعات القبلية التي ترتبط بالعصبية أكثر من ارتباطها بالدين. وكثيرا ما تحول الصراع بين قبيلتي "بني مزاب" و"الشعانبة" في الجنوب الجزائري - الأولى تنتمي إلى أصول أمازيغية إباضية، والثانية عربية مالكية - إلى مواجهات دامية جراء العصبية القبلية المنبعثة من النزعة الدينية.

وفي الأخير نقول إنّ القبيلة كمعطى تاريخي ومكوّن اجتماعي وعلى الرغم من العوائق التي تطرحها أمام تحديث الدولة وفرض سيادتها إلاّ أنّه لا يُمكن الصدام معها أو اجتثاثها بالقوة، ولكن يبقى البحث مفتوحا للإجابة عن سؤال مُهمّ وبديل يتمثل فيما يلي: كيف يُمكن أن يكون للتمدين والديمقراطية والمعرفة كعوامل ثلاث دورا في استثمار"القيم المشتركة" وتحويلها نحو المستقبل؟ أي نحو القبول بالآخر، والتمدين والاستقرار والتنمية والتحرر من "ذاكرة الشقاق. (بوزيد، 2017: 2) إنّ استيعاب واحتواء القبيلة بما يخدم مصالح الدولة الحديثة دون تصادم لا يعني البتة تذويب لخصوصياتها.

الخاتمة:

إنّ التنظيم القبلي نظام اجتماعي شامل ومُعقّد يتلاءم بشكل بارز مع المحيط الصحراوي الصرف ويُسجل حضوره القوي كلما غابت السلطة المركزية أو ضعفت، والقبلية هي نتاج طبيعي لسلطة القبيلة، باعتبارها تمثيل لا واعي للقبيلة سرعان ما يتحول إلى نزعة تهدف إلى إعلاء الانتماء القبلي، بل تسعى إلى تغليب الولاء للمجموعة القبليّة وللهوية القبليّة. فتماسك القبائل كلّها قد ارتكز أيضا على التهديد الدائم الذي

تضغط به كلّ قبيلة على الأخرى، وبالإضافة إلى الروابط الطبيعية التي جعلت من القبيلة كتلة متلاحمة، فإنّ إرادة الاستقلالية لدى أفرادها تجاه السلطة المركزية جعلتهم يدافعون على استقلالها لأنّ مبدأ الحرية أو الاستقلالية ارتبط دائما بالخروج عن نطاق الدولة.

فتبرز قوّة العصبية القبلية كنتاج حقيقي لسيادة الفوضى والاضطراب، وضعف الولاء للسلطة السياسية، وما ينجر عن ذلك من خلل يمس الحياة العامة للمجتمع، فتشتد بذلك النزاعات وتستفحل الصراعات بين القبائل بحثا عن الزعامة وفرض الهيبة على الواقع، وهو ما ينسحب على وضعية الصحراء قبل الاحتلال الفرنسي لها.

ما يُمكن استخلاصه أيضا هو أنّ هجمات القبائل وغاراتها تحت إطار العصبية خاصة تلك التي دخلت مجال التحالف على القبائل الأخرى، كانت هجمات تدميرية، واحتوائية في أغلب الحالات حيث لا تترك مجالا لإعادة الانبعاث، أو حتى استمرارية الدفاع في إطار تكتل القبيلة. وكان غالبا ما تلجأ بعض القبائل خاصة الضعيفة منها إلى طلب الدعم والمساعدة، أو حتى الدخول في حماية أو ولاء لقبائل القوية من أجل الثأر والانتقام ليترتب عن ذلك الفعل مسؤولية جماعي

إنّ المحافظة على المجموعات التي تحددها قرابة الرحم أضحت تشكل عقبة كبيرة في وجه بناء دولة قوّية، خاصة لمّا تتحول العصبية من بعدها القرابي إلى البعد الإيديولوجي، فينجر عن ذلك ظهور النزعات الاستقلالية والانفصالية لأنّ غاية العصبية هو الملك أو التنافس حول السلطة. وعلى صعيد آخر فإنّ العصبية ليست مقصورة على التوظيف الجاهلي فقط، وإنّما هي ظاهرة طبيعية في الحماية والمطالبة، وتكون بالاتحاد والالتحام بين أفراد مجتمع معين تجمع بينهم رابطة النسب سواء كان بعيدا أو قريبا وفي الحديث الشريف " ما ظهر من نبيء إلاّ في منعة من قومه".

يبقى استمرار القبلية في صورها السلبية نموذجا طارئا للحفاظ على ثقافة البداوة كنظام اجتماعي مؤقت يتوارثه أفراد القبيلة من جيل إلى آخر، ويحتمون داخله

عندما يجدون أنفسهم مُهددون أو مقصون. فالبداوة بكلّ أشكالها أضحت جزء منّا وعنصرا من مكوناتنا النفسية، إذ ما تزال حاضرة في واقعنا اليوم كسلوك وممارسات. على أنّ الدولة هي من يدفع تبعات وثمن التخلف الاقتصادي والشمولية في الحكم كنتاج لأخطاء تعاملنا وتوظيفنا للقبيلة كمؤسسة قابلة للتحضر والممارسة الديمقراطية.

المراجع باللغة العربية.

1- باتسييفا ،"*البدو والحضر في مقدمة ابن خلدون" دراسات في تاريخ الثقافة العربية*، 1989، ترجمة أيمن أبو شعر، موسكو، دار التقدم.

2- برشان، محمد ،2016، *الحياة الاجتماعية، الاقتصادية والثقافية بمنطقة بشار*، الجزائر، دار أم البراهين للنشر والتوزيع.

3- بوزياني الدراجي، 2003، *العصبية القبلية – ظاهرة اجتماعية وتاريخية "على ضوء الفكر الخلدوني"*، ط1، الجزائر، دار الكتاب العربي.

4-بوزيد بومدين، 28/ 29/ نوفمبر 2017، *"القبيلة والمستقبل: نحو استثمار القيم المشتركة"*. الملتقى الوطني الثالث:الصحراء الجزائرية: مجال لبناء الإنسان والحضارة- القبيلة والمجتمع المدني في الجزائر - مقاربة سوسيو تاريخية. كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة طاهري محمد بشار . قاعة المحاضرات.

5-بوطالب، محمد نجيب، 2002، *القبيلة التونسية بين التغيير والاستقرار: الجنوب الشرقي من الاندماج القبلي إلى الاندماج الوطني*، سلسلة علم الاجتماع 8 ، تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية.

6-بوطالب، محمد نجيب، 2009، *سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي*، ط2، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.

7- الجابري، محمد عابد، 1982، *العصبية والدولة - معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي*- بيروت، دار الطليعة.

8-ابن خلدون، عبد الرحمان، 1965، *كتاب تاريخ العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر- مقدمة ابن خلدون*، تحقيق على عبد الواحد وافي، القاهرة، لجنة البيان العربي.

9-روس،ا، دان، 2006، *المجتمع والمقاومة في الجنوب الشرقي المغربي، 1881-1912* ، ترجمة، أحمد بوحسن، الرباط، مطبعة المعارف الجديدة.

10- الساعاتي حسن، نوفمبر 1983، "البدو والحضر عند ابن خلدون "*مجلة الثقافة*، الجزائر، ع .78

11-صبحي أحمد محمود، 1989، *في فلسفة التاريخ*، الإسكندرية، مؤسسة الثقافة الجامعية.

12-العروي، عبد الله، 1992، *ثقافتنا في ضوء التاريخ*، ط2، المركز الثقافي العربي، بيروت.

13-العروي، عبد الله، 1996، *مجمل تاريخ المغرب، ج1* ، ط5، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

14-مهديد إبراهيم، 2006، القطاع الوهراني ما بين 1850 و 1919، *دراسة حول المجتمع الجزائري، الثقافة والهوية الوطنية*، وهران، منشورات دار الأديب.

المراجع باللغة الأجنبية.

15- Céard, L. mars 1933, *Gens et Choses de Colomb Bechar ,* Archives Institut Pasteur d'Algérie. Tome 11, N◈01, Alger.

16-C.N.R.S.A. 1945 *, Propos De Bénis. Abes*. Alger.

17-De La Matinier, (H .M.P), Lacroix, (N), 1897, *Documents Pour Servir a L'Etude Du Nord Oust Africain*, T2, Alger, Gouvernement General De L Algérie .

18-Gautier E.F, 1908 *, le Sahara Algérienne,* Paris : Librairie Armand Colin, .

19-Jaque Berque, 1953 , « *Qu'est ce que Une Tribu Nord- Africaine ? Dans éventail De L'Histoire Vivante*, Hommage a Lucien Febvre, Paris.

20-pierre Bonté, Edouard Conte, 1991, *Constant Hamès, Abdel Wedoud Oul Cheik. Al-Ansâb,, la Quête des Origines: Anthropologie Historique de la Société Tribale Arabe*, Editions MSH, 1

21-Yazid Ben Hounet, 2009 , *L'Algérie des tribus. Le fait tribal dans le Haut Sud- Ouest contemporain*, Paris, L'Harmattan, collection « Connaissances des Hommes » .